مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، نصف سنويّة دوليّة محكّمة،
السنة التاسعة، العدد السابع والعشرون، ربيع وصيف ١٣٩٧هـ. ش/٢٠١٨م
صص ٨٥- ١٠٤

فصام الهوية بين أنوثة قاهرة ورجولة مقهورة:
قراءة ما بعد كولونيالية في رواية "العطر الفرنسي" لأمير تاج السر

فرامرز ميرزايي* وبشرى جزائري راد** وخليل پرويني*** وهادي نظري منظم****

الملخص

الغزو الفكري والثقافي أو ما يعرف بالاستعمار الحديث يمكن الغرب من إذابة ملامح هويات الشعوب دون الحاجة إلى العنف العسكري. وقد تنعكس تأثيراته على هويات المستعمَرين بظهور أعراض مشابهة لأعراض مَرضى الفصام/الشيزوفرينيا، حيث يعيشون حالة من الانفصام والاغتراب الذاتي والابتعاد عن الواقع والسير في عالم الأوهام والخيالات. وقد تطرّقَ الأدب ما بعد الكولونيالي، خاصة الروائي منه، لقضية الهوية والصراع النفسي بشكل واسع. إذ تُعدّ إشكالية الهوية وقضاياها الشائكة كجدلية الأنا والآخر المتمثلة بـ (الشرق/الغرب)، من أهم مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي. وقد تناول الكاتب العربي لقاء الشرق بالغرب في نتاجه الأدبي بكثرة لرصد تبعاته وتأثيراته على الهويات في حقبة ما بعد الاستعمار. وفي هذا الصدد عالجت رواية "العطر الفرنسي" للأديب السوداني أمير تاج السر، تأزم هويات الشخصيات الروائية مستخدمة جدلية الأنا الشرقي والآخر الغربي في إطار علاقة الرجل بالمرأة، لكن بمعادلة مغايرة لما جاء في الروايات السابقة؛ المرأة الغربية –بالأحرى طيفها– هي التي تقصد الشرق، وتحديدا السودان، وتغزو الشرقي في عقر داره وتؤدي إلى تأزمه. كما كشفت عن تبعات هذا اللقاء الوهمي مما يحذر من استعمار غربي جديد يتمّ في الشرق بآليات حديثة. يرصد هذا البحث وفقا لمفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي والمنهج التحليلي –الوصفي توظيف الرواية الخاص لثنائية الرجولة/الأنوثة ودلالتها على تأثير الغرب على البعد الهوياتي للشعوب في حقبة ما بعد الاستعمار. ووجدنا أن الرواية بدءا بعنوانها تدلّ على الغياب الكبير للشعور بالقهر الاستعماري عند المستعمَر وأشكال الضغينة التي كانت تميز علاقات المستعمَر والمستعمِر السابقين، وأن فصام هوية البطل وعجزه عن امتلاك محبوبته رمز دالّ على عجز الشرق عن امتلاك الغرب وإصابته بما يشبه أعراض مَرضى الفصام.

كلمات مفتاحية: الهوية، رجولة/أنوثة، ما بعد الكولونيالية، أمير تاج السر، العطر الفرنسي.

---

* – أستاذ في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس، طهران.

** –طالب الدكتوراه في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس،طهران.(الكاتب المسؤول) b.jazayri@modares.ac.ir

*** – أستاذ في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس، طهران.

**** - أستاذ مساعد في قسم اللّغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس، طهران.

تاريخ الوصول: ١٣٩٦/٠٩/١١هـ.ش= ٢٠١٧/١٢/٠٢م تاريخ القبول: ١٣٩٧/٠٧/٠٦ هـ.ش= ٢٠١٨/٠٩/٢٨م

المقدمة

لقد مرّت معظم البلدان الإسلامية بفترات غير قصيرة من العهود الاستعمارية الغربية، كان لها تأثيرات عميقة على جميع الأصعدة خاصة على الهوية الثقافية، لكن زوال الاستعمار المباشر، لم يغيّر تغييرا جذريا طبيعة العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر السابقين، وتلا مرحلة الاستعمار ما يعرف بالغزو الفكري والثقافي الذي يعبّر عن التبعية الفكرية والثقافية للغرب. فالاستعمار اليوم ينتج العديد من موارد الاتصال لكن بأشكال مغايرة ومعاصرة، ولاسيّما فى البلدان التي خضعت للاستعمار العسكري في الحقب التاريخة السالفة. وأحالت دراسات كثيرة أزمة الإنسان المعاصر برمتها إلى أزمة الهوية، من ثم حظي الموضوع باهتمام ملحوظ في الساحة الفكرية والنقدية المعاصرة. لكن الحديث عن الهوية ومكوناتها وأسباب اختزالها وطمسها يختلف عما كان أثناء الاستعمار المباشر.

مفهوم الهوية مفهوم واسع لا يقتصر على تعريف واحد، شأنه شأن بعض المصطلحات الحديثة التي لا يزال يكتنفها الغموض والضبابية، خاصة في الوقت الراهن إذ لا يمكن فصله –بأية حال– عن ظاهرة العولمة، لأنه جزء من منظومة عالمية، ما يزيد صعوبة تعريفه وتبيين حدوده. وفي مفهومه الواسع يشبه كائنا حيّا من حيث دمجه للاختلافات في وحدة متجددة. وهو سمات مشتركة تميز جماعة عن أخرى، وكيان معنوى له إمكانية النمو والتجدد باستمرار والتفاعل مع كيانات معنوية أخرى. وبطبيعة الحال تعدّ قضية الهوية من القضايا الساخنة والهامة التي تصدت لها الرواية الحديثة، إذ لا يمكن الفصل بين الأدب والمجتمع.

وظهرت النظرية ما بعد الكولونيالية في أواسط القرن العشرين قاصدة تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية باعتباره خطابا مقصديا، يحمل في طياته توجهات استعمارية إزاء الشعوب التي تقع خارج المنظومة الغربية. واهتم النقد ما بعد الكولونيالي بتأثيرات الاستعمار على هوية المستعمَرين أثناء وبعد المرحلة الكولونيالية في النصوص الأدبية. فقد تطرق أدب ما بعد الكولونيالي خاصة الروائي منه، لقضية الهوية والصراع النفسي.

ومن منظور النقد ما بعد الكولونيالي ترتبط إشكالية الهوية بجدلية الأنا/الآخر. وقد احتلت الجدلية حيزا واسعا من الخطاب الروائي الحديث. فالروايات الشهيرة ك"قنديل أم هاشم" ليحيى حقي و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم و"الأديب" لطه حسين و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح و"الحي اللاتيني" ليوسف إدريس وغيرها، تناولت هذه الجدلية الهامة في إطار العلاقة بين رجل يمثل الشرق وامرأة تمثل الغرب، والتفاعل بينهما بما فيه من مد وجزر يمثل العلاقة بين الشرق والغرب. تبدأ هذه الروايات عادة برحلة يقوم بها البطل إلى الغرب، ممثِّلا –في الغالب– تجربة الكاتب لأنه عاش في كنف الحضارة

الغربية، وتنتهي بفشل العلاقة بينهما، إذ يظهر الشرقي منبهرا أمام الغربية ثم تتأزم العلاقة بينهما وتنتهي برجوعه إلى وطنه خائبا ومكتسبا رؤية جديدة. لكننا أمام تجربة مختلفة في هذا الحقل؛ ففي رواية "العطر الفرنسي" لأمير تاج السر، الرجل الشرقي ليس مسافرا إلى الغرب بل مغزو في أرضه، تتعرض هويته للطمس في عقر داره.

ونظرا إلى أن سرديات ما بعد الاستعمار أساسا تطرح سؤال الهوية، اعتمدنا على منهج النقد ما بعد الكولونيالي والمنهج الوصفي التحليلي، بهدف فهم كيفية طرح الأديب السوداني أمير تاج السر العلاقة القائمة بين الشرق والغرب برؤيته الجديدة في روايته "العطر الفرنسي"، عبر **سؤالين** هما:

١. كيف استخدم أمير تاج السر ثنائية رجولة/أنوثة في خطابه الروائي للدلالة على تأثيرات الغرب على الهويات؟
٢. كيف وظّف الكاتب الشخصيات الروائية في خطابه الروائي لبيان فصام الهويات؟

الفرضيات:

١. استخدم تاج السر ثنائية رجولة/أنوثة للدلالة على علاقة الشرق بالغرب، متخذا أسلوب عرض جديد، حيث إن المرأة الغربية هي التي تأتي –في وعي بطل الرواية– إلى الشرق، ما يرمز إلى استعمار غربي جديد يستهدف البعد الهوياتي للشخصيات مباشرة دون الحاجة إلى العنف.
٢. جميع شخصيات الرواية تأثرت هويتها نسبيا بخبر قدوم الفرنسية وتغيرت ملامح حياتها، وسيطرت عليها أعراض حالة مَرضية تشبه أعراض مَرضى الفصام. لكنها ظهرت شديدة على بطل الرواية، حيث ابتعد تدريجيا عن الواقع وعاش الوهم، ما يعكس فوضى تعيشها معظم البلاد الشرقية على الصعيد الهوياتي.

أما **كخلفية البحث** فقد تناولت دراسات كثيرة إشكالية الهوية، نذكر منها ما هو قريب من موضوعنا. هناك بحث "**الهوية وجدلية المركز والهامش في رواية نجمة لكاتب ياسين**" لعلي رحماني منشور في ندوة المَخبَر الهوية في الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر بسكرة سنة ٢٠١٤م، استعرض فيه خروج الروائي عن المألوف في روايته التي كتبت سنة ١٩٥٦ عن حياة الجزائريين المؤلمة، وخلص فيها إلى أنها أنموذج للصراع بين المركز المتجلي بالاحتلال الفرنسي والهامش المتجلي بحياة أبطالها لترسيخ الهوية. وبحث "**فجيعة الهوية في رواية حلم على الضفاف لحسيبة موساوي: تشظي الآخر أم تغريب قسري**" لمصطفي بوجملين، نُشر أيضا في ندوة المَخبَر سنة ٢٠١٤م، تناول مسألة الهوية وتمظهراتها داخل النص الروائي الجزائري الحداثي. وبحث "**الهوية وإشكالية الأنا والآخر: قراءة تحليلية في رواية سهرة**

تنكرية للموتى لغادة السمان" لفيروز زوزو نُشر في نفس الندوة سنة ٢٠١٥م، عالج مدى نجاح الأنا في الحفاظ على هويتها في الغربة، وأنه يجب عدم التقوقع في الأنا العربية أو مواجهة الآخر الغربي في عالم منفتح على كل الهويات الثقافية. وبحث "**تمثيل هوية التابع في الرواية العربية الجديدة: رواية شيكاجو أنموذجا**" لمحمد علي آذرشب وفاطمة أعرجي نُشر في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الثامنة، العدد السادس والعشرون سنة ١٣٩٦ش. عالج فيه الكاتبان كيفية صناعة الهويات التابعة وتمثيلها في الروايات على ضوء النقد ما بعد الكولونيالي وتوصّلا إلى أن الهوية صنعة ثقافية وأن السرد له إمكانية صناعة الهوية أو إعادة بنائها ما يقترب من وجهة نظرنا في بحثنا. وغيرها الكثير من الدراسات لكننا لم نجد دراسة تتناول تأزّم الهوية من منظار إصابتها بأعراض تشبه أعراض مَرضى الفصام في عصر ما بعد الاستعمار. كما أن روايات أمير تاج السر، لم تحظ باهتمام الباحثين على ما لها من أهمية في السرد ما بعد الكولونيالي، اللهم إلا في كتابات قليلة منثورة في مواقع الإنترنت تعرّف رواياته لا أكثر. وبهذا تتضح أهمية الموضوع وضرورته.

وللبحث عن إجابات لتلك الأسئلة لابد من التطرق إلى النقد ما بعد الكولونيالي وصلته بالهوية قبل الخوض في الرواية. لأنه يكشف ما تتعرض له الهوية في عالم ما بعد الاستعمار.

النقد ما بعد الكولونيالي

فتح إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" (١٩٧٨م)، حقلا من البحث الأكاديمي هو الخطاب الاستعماري، خطاب تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي. فحسب رأي سعيد «هناك سمات ملازمة للنصوص التي تتناول البلدان المستعمرة والتي مصدرها أنظمة عقائدية تهيكل القوالب الخطابية وتعطيها المصداقية والقوة لعلاقات السلطة التي نجدها في الإمبريالية»[١]. وجاء هذا الخطاب كرد فعل على الخطاب الاستعماري المهيمن «الذي اختزل الشعوب والثقافات غير الغربية إلى أنماط مضادة للتحديث وعائقة للتطور»[٢]. وظهر مصطلح "النظرية ما بعد الاستعمارية" الذي «يشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى وأنّ مرحلة من الهيمنة تسمى أحيانا المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية قد حلّت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين»[٣].

---

[١] حفناوي بعلي، **مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن**، ص٦٥.

[٢] عبدالله إبراهيم، **التجربة الاستعمارية وكتابة المنفى:ضمن كتاب الكتابة والمنفى**، ص٢٥٤.

[٣] ميجان الرويلي وسعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**، ص١٥٨.

يرصد النقد ما بعد الكولونيالي قضايا هامة متعلقة بالهوية في إطار علاقة الأنا بالآخر وجدلية الشرق/الغرب، والعرق، والجنس وغيرها، بغية خلخلة الخطاب الإمبريالي وتفكيك تعريفاته السائدة وإنزال خطاب آخر محله يفضح سياسات التهميش والممارسات السلطوية. وقد عُني هذا الخطاب «بالهويات والاتّجاهات والكتابات التي أُريد لها أن تندثر أو أن تطمس، لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى»[١]. فقد شكلت الهوية الموضوع الأساسي فى النقد ما بعد الكولونيالي.

ومن الملاحظ على ضوء النقد ما بعد الكولونيالي أن إشكالية الهوية مرتبطة بجدلية الأنا/الآخر (المركز/الهامش)، لأن الاحتكاك بالآخر يحرّك الإحساس بالانتماء لدى المرء ويدفعه إلى بناء هوية مستقلة تميزه عن غيره. وتتخذ الجدلية موضعا مركزيا في النظرية ما بعد الكولونيالية إذ «لم يكن ممكنا للكولونيالية أن توجد على الاطلاق إلا من خلال افتراض وجود مقابلة ثنائية ينقسم إليها العالم. وقد اعتمد التأسيس المتدرج للإمبراطورية على العلاقة الهرمية الثابتة بوجود المستعمَر بوصفه الآخر بالنسبة للثقافة المستعمِرة»[٢]. وبالنسبة للشعوب المستعمَرة فإن الآخر هو المستعمِر/الغربي «الذي يمثل الحداثة والتقدّم والتقنية مثلما يحشد القوة والغلبة والسيطرة إذ يحاول فرض لغاته وأفكاره وقيمه ومصالحه على الذوات الحضارية الأخرى»[٣]. ومن الملاحظ أن اختزال الهوية وطمسها لم يتوقف مع انجلاء المستعمِر ولم تتحرر من سلطته، فالاستعمار يتواصل اليوم بأشكال عصرية «لكنّها كلاسيكية في جوهرها»[٤] كما عبّر عنها إدوارد سعيد.

١. جدلية الشرق/الغرب وإشكالية الهوية

الهوية، باعتبارها صفات وثوابت تميز أمّة عن أخرى، لا تنفصل عن مفهوم "الآخر"، فـ"الأنا" تتعرف على ما يميزها من خلال "الآخر". وهي تصان «بتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه، أي في العقيدة وفي اللغة وفي الفن وفي الأدب وفي كثير من النظم الاجتماعية»[٥]. وقد «شكّل موضوع اللقاء الحضاري مع الغرب في صورة علاقة الأنا الفردية والجمعية بالآخر المتفوق الغالب المهيمن، قيمة أساسية

---

[١] محسن جاسم الموسوي، **النظرية والنقد الثقافي**، ص٧١.

[٢] بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات ما بعد الكولونيالية**، ص٩٣.

[٣] معجب الزهراني، **صورة الغرب في كتابة المرأة العربية ضمن كتاب أفق التحولات في الرواية العربية**، ص٥٥.

[٤] إدوارد سعيد، **تأملات في المنفى**، ص١٧٦.

[٥] زكي نجيب محفوظ، **في مفترق الطرق**، ص٣١٠.

من قيم الفكر العربي، فبدت في بعض الأحيان في صورة الصراع مع الغرب، وفي أحيان أخرى في صورة اللقاء الحضاري المؤطر بعلاقات المثاقفة»[١].

وقليلا ما كانت النشاطات الغربية بريئة من الأهداف الاستعمارية في محاولة استعلائية تُشعِر الشعوب بالدونية والرغبة في الانتماء إلى المستعمِر. واعتبره "فرانز فانون" أخطر الأمراض قائلا: «الأسود الذي يريد أن يدفع بني جلدته لتبني الهوية البيضاء، هو شخص تعيس تماما كالذي يحرض على كراهية الإنسان الأبيض»[٢]. فالاستعمار يسحق إحساس المستعمَر بذاته فينكر هويته «لهذا السبب لا يُعَدُّ إنسانا»[٣]. و«ترسخ فكرة الآخر الأفضل التي رسخها الاستعمار أثناء محاولته الدءوبة والدائمة في محو هوية الشعوب المستعمرة؛ لأنه بضياع هويتها تبقى مستعبدة»[٤].

من هنا «بدأ سؤال الهوية يؤرق الإنسان العربي نتيجة احتكاكه بالآخر، الذي سبقه حضاريا، وبدأ يهدد وجوده، حين زحف إلى الشرق مستعمِرا، إذ إن المرء لا يدرك أهمية هويته، إلا في لحظة مأزومة، عندئذ يرتدّ إلى مكوناته الأصلية، التي تمنحه الإحساس بوجوده، فيحسّ بضرورة الحفاظ على هذه المكونات مهما كانت التحديات»[٥]. فقضية الهوية يعاد طرحها بقوة عند الإحساس بتهديدها أو تهميشها أو اختزالها.

هذا وإن المرء لا يعثر على هويته إذا لم يستطع أن يتشكل داخل ما يرويه، لهذا فأن الهوية «قد تكون نتاج عملية السرد أو التحبيك الذي تمارسه الجماعات»[٦]. وإذا صدق القول على الصعيد الفردي «فإنه يبدو كذلك على صعيد الجماعات وعلى صعيد الأمم والشعوب، وهذا ما يتجلّى من خلال حاجة الأفراد والجماعات إلى إنتاج ضروب السرد والمحكيّات»[٧]. وبوصفها سردية فهي عرضة للتغيير والتحول. وهذا يجعلنا نفهم كيفية توظيف النصوص الأدبية لخدمة المصالح الإمبريالية كما كان الاستشراق يمهّد للاستعمار.

---

[١]–الحاج بن علي، **تمظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية** ، ص١٠٧.

[٢]–فرانز فانون، **بشرة سوداء أقنعة بيضاء**، المقدمة.

[٣]–آنيا لومبا، **الكولونيالية ومابعدها**، ص١٨٨.

[٤]–خيرية دغوم، **أزمة الهوية محنة الوطن في مسرحية ربطة العنق الدامية لنصر الدين بن غنيسة** ، ص٣.

[٥]–ماجده حمود، **إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية** ، ص١٣.

[٦]–كاظم نادر، **الهوية والسرد**، ص ٧٩.

[٧] – محمد علي آذرشب وفاطمة أعرجي، **تمثيل هوية التابع في الرواية العربية الجديدة رواية شيكاجو أنموذجا**، ص٢.

من جانبها نشأت الرواية العربية نتيجة احتكاك الشرق بالغرب؛ فقد «تأسست الرواية العربية مع واقع عربي مهزوم ومأزوم، يعاني الاستعمار والتخلف والانقسامات»[١]. وظهرت جدلية الأنا/الآخر في الرواية العربية في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، «مع التغلغل الاستعماري في العالم العربي والإسلامي، من هنا طرحت إشكالية الشرق والغرب فكرا وإبداعا وتخييلا ظهرت لاسيما ثنائية التقدم والتخلف، ثم برزت أيضاً عبر ذلك عقدة النقص العربي أمام تفوق الإنسان الأوروبي واضحة للعيان في الكتابات السردية العربية الأولى بالخصوص»[٢].

٢. غواية الغرب وفصام الشرق

وظّف الكتّاب في نتاجهم علاقة الرجل بالمرأة لدلالة على اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب؛ حيث يصبح الرجل رمزا دالا للشرق وتصبح المرأة رمزا للغرب والتفاعل بينهما يمثل التفاعل بين الشرق والغرب. ومن منطلق النقد مابعد الكولونيالي فإن هيمنة الرجل على المرأة في النظام الأبوي يشبه هيمنة المستعمِر على المستعمَر في الاستعمار، وأن «كلّا من النظام الأبوي والإمبريالية يمكن رؤيتهما كممارسين لأشكال متشابهة من السيطرة على أولئك الذين يجعلونهما خاضعين»[٣]. الروائيون العرب عكسوا معادلة رجولة الغرب وأنوثة الشرق التي خلّفها الاستعمار؛ «فرمزوا إلى الغرب بإمرأة مشتهاة للاغتصاب من قبل رجولتهم الشرقية المسحوقة»[٤] ثأرا لأنفسهم ولرجولتهم.

وقد لجأت النظرية ما بعد الكولونيالية في تفسير علاقة المستعمَر بالمستعمِر إلى علم النفس. واستقت آراء الطبيب النفساني "فرانز فانون" أول من قام بتحليل هذه العلاقة تحليلا نفسيا. وظهرت مصطلحات كـ"الإزدواج الوجداني"[٥] وعقدة النقص وغيرها ترجع جذورها إلى التحليل النفسي. منها مصطلح "الفصام" أو "الشيزوفرينيا" وهو بالأصل «مرض ذهاني يؤدي إلى نقص انتظام الشخصية وإلى تدهورها التدريجي. ومن خصائصه الانفصام عن العالم الواقعي الخارجي. ويعيش المريض في عالم خاص بعيدا عن

---

[١] محمد نجيب التلاوي، **وجهة نظر في روايات الأصوات العربية دراسة** ،ص٤٢.

[٢] جميل حمداوي، **صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي**، almothaqaf.com

[٣] بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات ما بعد الكولونيالية**، ص١٧٧.

[٤] جورج طرابيشي، **الأعمال النقدية الكاملة: شرق وغرب،رجولة وأنوثة**، ج١، ص١٠.

[٥] بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات ما بعد الكولونيالية**، ص٦٠و٦١. مصطلح كان أول ظهوره في مجال التحليل النفسي لوصف التأرجح بين الرغبة في شيء ونقيضه. استعاره "هومي بابا" وأدخله إلى نظرية الخطاب الكولونيالي ليصف المزيج المركب من الانجذاب والنفور الذي يسم العلاقة بين المستعمَر والمستعمِر.

الواقع، وكأنه في حلم مستمر. ويعرف أحيانا باسم "انفصام الشخصية وأيضا تفكك الذات»[١]. ومن أعراضه «البعد عن الواقع والاستغراق في الذات، يعيش المريض سجينا داخل نفسه كما لو كان في جزيرة منعزلة تملؤها أوهامه وخيالاته، وهي بالنسبة له حقيقة فلا يرى الواقع الموضوعي. لأنه يعتبر العيش في عالم خيالي أحسن من الوضع الأليم»[٢].

قد استخدم هذا المصطلح في دراسات ما بعد الكولونيالية للدلالة على حالة المستعمَر جراء صدامه مع المستعمِر وثقافته أثناء وبعد الاستعمار، إذ يصاب بتفكك الذات والعيش في عالم خيالي فرارا من الواقع الأليم؛ «فالإنسان إذا لم يوفق بين ميتافيزيقيا ذهنه وأفكاره ومعتقداته وبين التقلبات الواقعية وتغييراتها في حياته اليومية، فأنه سيصاب بـ"شيزوفرينيا"»[٣].

من منظور التحليل ما بعد الكولونيالي فإن للاستعمار، بكافة تمظهراته، اليد الطولى في زعزعة التوازن الفردي والاجتماعي وظهور أعراض مرضية شبيهة بأعراض مَرضى الفصام. إعلاء شأن القوى الاستعمارية وتحقير الشعوب المستعمَرة بواسطة الخطاب الكولونيالي وزرع عقدة النقص فيهم، يجرّهم إلى الشعور بالعجز أو الانبهار المفرط بالآخر. إطلاق نعوت كالهمجي والبدائي عليهم تسدي خدمة مهمة «لنظريات المعرفة المتمركزة أوروبيا والإيديولوجيات الإمبريالية/الكولونيالية. لأن مصطلحات مثل "بدائي، وهمجي، وما قبل كولومبي، وقَبَلي، والعالم الثالث، وغير متقدم، وغرائبي، جميعها تتخذ من الغرب مقياسا وتعرّف خلافه على أنه أدنى ومتخلف وسهل الانقياد»[٤]. وأخيرا القيام بالاعتداء على المميزات الثقافية والمحلية من لغة ودين وآداب ...الخ، يسوقهم إلى الاغتراب عن هويتهم. ولا يزال هكذا لأن «الوضع ما بعد الكولونيالي هو بمثابة تذكرة مفيدة بالعلاقات الكولونيالية الجديدة ضمن النظام العالمي الجديد»[٥].

ما يعنينا في هذا أن النظام الاستعماري قد عرّف الآخر بأنه همجي وبدائي وغير حداثي تبريرا لاستعماره باسم تنويره، وأن النظرية ما بعد الكولونيالية سعت للكشف عن قضايا خطيرة تخص الهوية وفضح سياسات القوى المهيمنة. فيما يأتي سندرس الرواية وفقا لما عرضناه من مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي.

---

[١] حامد عبدالسلام زهران، **الصحة النفسية والعلاج النفسي**، ص٥٣٣.

[٢] المصدر نفسه، ص٥٣٦و٥٣٧.

[٣] داود فيرحي وديگران، **مباني نظري هويت وبحران هويت**، ص٤.

[٤] بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات مابعد الكولونيالية**، ص٣١١.

[٥] هومي بابا، **موقع الثقافة**، ص٥١.

المضمون السردي لرواية "العطر الفرنسي" لأمير تاج السر[١]

الرواية ترصد حياة البؤس في حي فقير أصبح الغرب حاضرا فيه بشكل يومي، وذلك «بفعل التقنيات الحديثة، ففكرة غزو الغرب في عقر داره، لم تعد هي الفكرة السائدة حاليا»[٢]. بدأت الرواية بتلقي "علي جرجار" نبأ قدوم الفرنسية "كاتيا كادويلي" إلى "حي غائب" أحد الأحياء الفقيرة والشعبية في السودان: «لم يكن خبراً عادياً، ذلك الذي التقطه علي جرجار مصادفة، وأسرع به راكضاً إلى حي غائب»[٣]. نواةٌ ستنمو لتكون مدار الرواية، فـ"كاتيا" هي المركز وقد تحلّقت حولها جميع الشخصيات والأحداث بشكل هامشي ما يشكل جدلية المركز/الهامش. وانتهت بمشهد عربدة البطل وحملهِ سكينا تقطر دما ونقله إلى مشفى الأمراض العقلية بعد أن نما في ذهنه خبر الفرنسية القادمة، ونسج بخياله الواسع تفاصيل غرامه بها وزواجه منها إلى أن نخرت عقلَه سوسةُ الغيرة وتوهم أن أهالي الحي يغازلون عشيقته المتوهَمة.

الفرنسية «كاتيا جيرار كادويلي الممرضة الحسناء التي اكتسبت شهرتها حين عملت في حملة إغاثة لدى زيمبابوي، واكتشفت بالصدفة غشاً رهيباً في أدوية الملاريا، التي تقوم بتصنيعها شركات أجنبية معروفة، لتنقذ ملايين المرضى هناك وبمنحها مجلس الحكماء الإفريقي لقب الملاك الذي لم يمنح لأحد من قبل»[٤]. أما "علي جرجار" رجل الخمسينيات «عمل مراقبا لصيانة القاطرات في سكة الحديد، إلى أن انهارت تلك الأخيرة بسبب الإهمال ونسيان الحكومات المتعاقبة لأمرها. وكان يباهي دائما بمقاومته لمرض الملاريا وحمّى التيفود والنزلات المعوية الموسمية، التي تصيب حتى زعماء البلاد. وانتمائه إلى حزب "وطنك الكبير" الذي

---

[١]– أمير تاج السر طبيب وأديب سوداني ولد عام١٩٦٠م في شمال السودان، وتلقى تعليمه الأولي هناك. عاش فترة بمصر حيث تخرج في كلية الطب بجامعة طنطا، ويعمل حالياً طبيباً باطنياً بالعاصمة القطرية الدوحة، وهو ابن اخت الأديب "الطيب صالح". بدأ ممارسة الكتابة في مراحل مبكرة جداً من حياته، ففي المرحلة الابتدائية كان يكتب القصص البوليسية تقليداً لما كان يقرؤه أثناء الطفولة، وفي المرحلة المتوسطة بدأ يكتب الشعر بالعامية. وأصدر دواوين شعر بالعامية السودانية، وفي عام ١٩٨٥م بدأ يكتب الشعر بالفصحى، وكانت قصائده تنشر في مجلات كبيرة ومزدهرة. وقد حققت أعماله الروائية شهرة عالمية خاصة بعد ترجمتها إلى عدة لغات. منها: روايته الأولى "كرمكول"، "سماء بلون الياقوت"، "نار الزغاريد"، "مهر الصياح"، "زحف النمل"، "توترات القبطي"، "العطر الفرنسي"، "صائد اليرقات" التي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر للرواية العربية، "رعشات الجنوب"، "تعاطف"، "إيبولا ٧٦"، "أرض السودان..الحلو والمر"، "٣٦٦" وصلت إلى القائمة الطويلة للبوكر، "إشتهاء"، "طقس"، "زهور تأكلها النار". كما له سير ذاتية كتبت بلغة روائية منها "سيرة الوجع" و" قلم زينب".

[٢]علاء عبد المنعم إبراهيم، **تمثلات الغرب في الرواية العربية**، http://alkhaleej.ae .

[٣]أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٧.

[٤]المصدر نفسه، ص٤٧.

كان في الواقع حزبا مغمورا جدا لايضم في عضويته سوى ثلاثة أشخاص.كان يعشق نسج الحيل، وتخليد ذكرى الموتى المهمين في نظره بفرضه أسماء لمواليد الحي وشوارعه المغبرة، وابتدأ من سن مبكرة في تدريب مثانته على عدم حبس التبول، ورئتيه على عدم السعال أبدا، وذاكرته على عدم الخرف حتى لو بلغت سنة المئة. وكانت أعظم أعماله على الإطلاق تلك الصيحة التي تنادي بحرية التخيل لدى الناس»[١]. كل هذه الصفات تحمل في طياتها دلالات على تماهي البطل والسودان أو الشرق برمته. انهيار سكة الحديد بسبب إهمال الحكومة، مباهاته بعدم الإصابة بالأمراض التي تعمّ البلاد، إنتمائه إلى حزب مغمور اسمه بحد ذاته مفارقة صارخة، نسج الحيل وتخليد الموتى والاحتفاء بالخيال، صور عن واقع مرير، يدفع إلى التشبث بأي بارقة أمل وإن كانت محض سراب. وحتى ذاكرته الخالدة، ما هي إلا رمز للذاكرة الجمعية الأثيلة.

إلى جانب"كاتيا" و"جرجار" شخصياتٌ هامشية تساعد في بناء الصورة الكلية للحي، تترنح جميعها على حافة فقدان مقومات هويتها والانصهار في بوتقة الآخر. منها شخصية "الحكيم النبوي" معلم التاريخ الملقب بـ"المايكروفون" الذي يقوم بتأصيل الإشاعات وبثها في الحي، وشخصية "مبروك" المسؤول الحكومي الذي يمثل فساد الحكومات، و"حليمة المرضعة" قارئة الكف والمصائر التي تلعب دورا هاما في الحي، و"تعيس شاكر" الذي اكتسب الاسم لأنه الوحيد الذي لم يشرب ماء زمزم! والشاب "أيمن داوود" الوحيد الذي قطع شوطا كبيرا في دروب التكنولوجيا، و"ميخائيل القبطي" الرافض للهجرة لكن خبر قدوم الفرنسية قلب حياته وأمست الهجرة هاجسه، والأمني "موسى خاطر" الذي يسجّل جميع تحركات أهالي الحي تقارير للحكومة معظمها تفاهات تعكس تردي مهام الحكومات وتدخّلها المفرط في شؤون الشعب.

١. عنوان الرواية وغياب القهر الاستعماري

سيميائية العنوان من أهم القضايا النقدية التي تطرق إليها النقد المعاصر في قراءة النص الأدبي، «نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيرية وجمالية، وأخرى استراتيجية إذ يحتل الصدارة في الفضاء الفني للعمل الأدبي»[٢]. وأول ما يسترعي الانتباه في رواية "العطر الفرنسي" هو عنوانها الدالّ على الغياب الكبير للشعور بالقهر الاستعماري وأشكال العنف والضغينة التي كانت تميز علاقات المستعمَر والمستعمِر السابقين. يشعر القارئ من العنوان أنه أمام رواية مجردة من طابع العنف تنفي أي علاقة استعمار همجية. بل أن "العطر الفرنسي" يشي برائحة رقيقة محببة قادمة من جهة الغرب ترتجف لها أرنبة الأنف وتستعد

[١] المصدر نفسه، ص٩و١٠.

[٢] شادية شقروش، **سيميائية العنوان في "مقام البوح" لعبدالله العيش**، ص٢٧١.

لإستقبالها. ويشير إلى رواية حضارية جديدة تتماشى مع ما طرأ على العلاقات من طابع مَرن خال من العنف. لكن لا يمكن لقارىء فطن أن يغفل نسبة العطر إلى فرنسا ما يذكر بعلاقة الشرق/الغرب، والمستعمَر/المستعمِر.

٢. اختراق ثقافي بقناع المثاقفة

يُخبر المسوؤل الحكومي "جرجار" بقدوم الفرنسية للإقامة معهم "ضمن دراسة عالمية". فعلاقة الشرق والغرب لا تخلو من المثاقفة. والحقيقة أن المثاقفة لم تكن «مثاقفة مثالية قائمة على الأخذ والعطاء، وإنما مثاقفة جلبت التبعية الثقافية والاختراق الثقافي»[١] لأن مفهومها في عصرنا أصبح «مفهوماً غربيا، يعمل لمصالح المركزية الأدبية والفكرية الغربية»[٢]. وهكذا الحال فيما يتعلق بحضور الفرنسية؛ فلا المسوؤل الحكومي ولا أحد غيره يعرف ماهية الدراسة المقصودة التي دفعت امرأة من فرنسا تأتي إلى حي مغمور في السودان. ونعلم أنها ممرضة اكتشفت غشا في الأدوية وكما هو معلوم فقد «انعقد بين الطب وحركة الاستعمار تحالف مريب، ومصالح متبادلة، ما يجعلنا ننظر إلى الطب لا بوصفه علما منضبطا فحسب، بل توصيفا لعلاقات القوة والهيمنة. فقد كان الطب أحد أسلحة المستعمِر والمبشِّر معا»[٣]. تأتي إلى حي غائب حتى عن خريطة السودان لايصله نور التغيير. لكنه يستضيف أفواجا من الغرباء حتى إذا كان هذا الغريب هو المستعمِر بالأمس.

أخذ "جرجار" يبحث عن حقيقة الفرنسية في الانترنت بمساعدة الشاب "أيمن". وشُكلت لجنة سداسية بقيادة "الحكيم النبوي"، لمتابعة أخبار الفرنسية! وبدأت ملامح الحياة تتغير في الحي؛ جميع مسميات الدكاكين اختفت وحلَّ مكانها اسم "كاتيا". حتى البضائع المحلية اختفت واستُبدلت ببضائع مستوردة علّها تلاقي قبول الفرنسية، وعُولج صرير الأبواب الذي كان جزءا من ثقافة الحي: «فتحت باب بيتي، فأزعجني صريره لأول مرة، أحسست به عائقاً محتملاً، ربما يتآمر ليفسد حضارة أريد أن أتحضرها. أحضرت قليلا من الزيت أخذت أصبّه على مفاصل الباب حتى سكن توجعها»[٤]. وكأن الابواب أيضا تئنُّ لكن شفيت الآن لخبر قدوم الفرنسية!

---

[١] جمال مباركي، **المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة نماذج مختارة**، مجلة قراءات، ص١٣٦.

[٢] عزالدين المناصرة، **مقدمة في نظرية المقارنة**، ص٧٤.

[٣] كاظم نادر، **الهوية والسرد**، ص٩٤.

[٤] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٣٢.

صدّق أهل الحي الخبر وعايشوه؛ سكّان بسطاء في إنتظار حلم أوروبي ينتشلهم مما هم فيه من فقر، وحين تأخر قدوم ذلك الحلم أصبح البعض يفكر جدياً بالهجرة لملاقاته. القبطي "ميخا ميخائيل" يطلب من "جرجار" بإصرار أن يقدمه لـ"كاتيا" لتساعده في الهجرة إلى فرنسا وهو لم يرها بعد! لقد صدق توفيق الحكيم حين وصف حالة الشرق إزاء أروبا قائلا: «إن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأروبية. لا أحد يدري هل أروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم ناقع سري –وما زال يسري– في شرايينه، يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس. نعم اليوم لا يوجد شرق! انما هي غابة على أشجارها قردة تلبس زي الغرب!»[١]. وأجاد التعبير جورج طرابيشي عندما قال عن الشرق: «لاهو قادر على أن يبقى شرقا ولا هو مؤهل ليصير غربا؛ وإنما كتب عليه أن يكون بين بين، فهو "متشرغب" أو "متغشرق" بكل ما في هذه التسمية من ايحاءات كاريكاتورية»[٢].

تتصاعد وتيرة الأحداث؛ يموت "الحكيم النبوي" معلم التاريخ حين كتابة قصيدة ترحيبية للفرنسية. ويعلم "جرجار" من المسؤول الحكومي اعترافاً مفاده: «تأصيل الإشاعات ونشرها في الأحياء الفقيرة، مهنة رسمية لدى الدولة، وأن النبوي كان يتلقّي راتبا شهريا على ذلك، النبوي ينشرها، وموسى يكتبها تقارير وبقية الأجهزة تتصفح التقارير لإجراء اللازم»[٣]. لا تخفى على أحد دلالة جعل مهمة تأصيل الإشاعات على عاتق معلم التاريخ؛ التاريخ الرابض تحت ظل الحكومات وأجهزتها، تتحكم فيه وتسيّره في الاتجاه الملائم لمآربها. وموت معلم التاريخ عند كتابة أبيات ترحيبية للفرنسية دلالة جليّة على موت الروح الشرقية وماضيها وحتى مستقبلها أمام مادية الغرب.

٣. حب الآخر/كراهية الذات

تحدث أثناء الانتظار تطورات كثيرة أهمها سقوط "جرجار" في حب "كاتيا"، ذلك الحب الوهمي يدفعه للتخلي عن حياته القديمة، وبناء شخصية مغايرة استعداداً للزواج منها: «إذا صدقت آمالي ربما أنسحب قريبا من بذاءات حي غائب، والعشق المحلي إلى الأبد»[٤]. بدأ التغيير في الظاهر باختيار اللون الأزرق للملابس بعد أن علم أنه اللون المفضل لمحبوبته، لينال إعجابها ويرتفع بذوقه إلى مستواها، وبتغيير طلاء البيت: «استبدل قمصاني وبناطيلي التي اشتريتها منه، بأخرى كلّها زرقاء، وألتفت إلى بيتي، أنقب عن

---

[١] توفيق الحكيم، **رواية عصفور من الشرق**، ص١٩١.

[٢] جورج طرابيشي، **الأعمال النقدية الكاملة: شرق وغرب، رجولة وأنوثة**، ج١، ص٤٤.

[٣] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٦١.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٢.

الأزرق بداخله لأجعله في الواجهة»[١]. وهي محاولاتٌ للمستعمَر لارتداء أقنعة تقرّبه من المستعمِر، وقد أنكرها فانون في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء".

أخذ الحب ينمو في قلبه حاملا معه الضغينة لكل ما يمتّ للواقع بصلة؛ يتأمل الصور أمامه، بالواقع يتأمل الماضي ليتخلص منه: «حين وصلت إلى صورة تجمعني مع مغنية الأفراح الشهيرة حواء سخطة، لم أبتهج ولم أحس بحواء غير تاريخ متخلّف أيضا عليه أن يموت الان. مزقت الصورة وألقيتها على الأرض»[٢]. ويقدّم استقالته من حزب "وطني الكبير" الذي يضم ثلاثة أعضاء فقط! ويمثّل بشكل رمزي الإنتماء القومي والوطني. ويتفاقم الأمر، إذ لم يعد يكترث لأمور كانت ذات أهمية: «لم أستجب لنداء امرأة شابة رجتني أن أبعد عنها واحداً أخرق كان ملتصقا بجسدها»[٣]. لم يعد يعنيه غير أمر الفرنسية ولا يهزّه الموقف، مع أنه قد انتشل امرأة محشورة في حشد رجال سابقا.

وهذا الانجذاب الشديد نحو الآخر والتخلّي عن الواقع، يعكس الرغبةَ الملحة في التخلي عن مقومات الهوية المحلية والانبهار بالآخر و«الآخر لايسلم نفسه للأنا إلّا إذا خلعته من تاريخه، وقطعته عن ماضيه، وجردته من تراثه، وفصمته عن شخصيته الحضارية، بله الدينية»[٤]. وأقنعته أنه عبد تابع ليس له كيان مستقل وهي فكرة الدونية إزاء الآخر المستعمَر تنطلق من قناعة مؤدّاها: «إذا حاولنا إقناع البشر بأنهم عبيد فإنهم يصدّقون ذلك في النهاية»[٥].

٤. قهر أنثوي/انهزام رجولي

عمد الكاتب إلى إقامة علاقة مماهاة بين المرأة (كاتيا) والغرب بإضافة صفات أنثوية إلى باريس: «أضاف "باريس" مرة، مدينة ذات جاذبية وخصر دقيق، عاد ومحاها مخافة أن يظنها البعض امرأة فيشتهونها»[٦]. والشرق بمثابة رجل تستهويه هذه الأنوثة الفاتنة. وافتراض "كاتيا" في العشرين ووضع عقود الماس حول عنقها وأقراط مذهبة في شقوق إذنيها جاء إكمالا لوصف فتنة الغرب وقدرته المدوخة على

---

[١] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٧٤.

[٢] **المصدر نفسه**، ص٣٤.

[٣] **المصدر نفسه**، ص٧٩.

[٤] جورج طرابيشي، **الأعمال النقدية الكاملة: شرق وغرب، رجولة وأنوثة**، ج١، ص١٦٤.

[٥] تزفيتان تودوروف، **فتح أمريكا:مسألة الآخر**، ص٢٢١.

[٦] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص١٠.

سلب العقول. «فالصراع الأبدي بين الشرق والغرب هو عينه الصراع الأزلي–الأبدي بين الرجولة والأنوثة»[١].

الأنوثة تغزو كل رموز الرجولة في الشرق، فحتى حكام أفريقيا هائمون بكاتيا/الغرب، يحتفون بها ويمنحونها الألقاب وتتحول علاقتهم بها كعلاقة الرجل بالمرأة: «لا أذكر بالتحديد متى بدأت علاقتي تتوطد بصور كاتيا الملاك التي قطعا دخلت في الحلقة الرابعة أو الخامسة من مسلسل حكماء أفريقيا لتتحول تلك العلاقة إلى شراكة حقيقية بين رجل وامرأة، ذكر وأنثي»[٢]. والبطل العاشق يضمر حقداً شديدا لأفريقيا التي لاتفلت محبوبته ليحظى بها وحده: «كنت محبطاً ومغتاظاً، وبتُّ أضمر حقداً شرساً لأفريقيا من رأسها حتى قدميها، تلك التي لا تريد أن تفلت العطر حتى نشمه، لا تريد أن تعيننا على التغيير الذي بدأناه بالفعل، وخفت في قمة توتري أن يتجاوز أولئك الحكماء معنى قبولها للقب الملاك وضيافتهم السخيفة إلى أبعد من ذلك، حيث يتقاتلون عليها بثروات شعوبهم.. لاأريد أن أسأل نفسي عن هويتي، والمعنى الذي قد أعنيه للفرنسية حتى لو جاءت وسكنت في قلب بيتي. فقد وطنت نفسي على حبها وأنني رجلها الذي ستأتي لتعانقه»[٣].

ويطلع "جرجار" «إنها في غينيا بيساو، في ضيافة الزعيم، وفي هذه اللحظة بالذات يقوم بمنحها لقب الجوهرة البيضاء الذي أقره البرلمان أمس فقط من أجلها. ولديها موعد في دولة الكاميرون غدا، لتبارك فريق كرة القدم قبل سفره لمباريات كأس العالم.. أرى أنياب أفريقيا وأضراسها، تعضّ على عطري الفرنسي ولا تفلته، من موائد الحكماء إلى مباريات كرة القدم، وغدا قد يستخدمونها مفاوضاً محتملاً في الحروب الأهلية»[٤]. وتمثّل كثيرا من بلدان أفريقيا: «لديها دعوات من نيجيريا وتشاد وبتسوانا، وجزر تمبستو، وساحل القرود، وبلاد اللخم، لمفاوضة المتمردين الذين أشعلوا حروبا أهلية أضرّت باقتصاد تلك الدول»[٥].

كل هذا يدلّ على أن أفريقيا التي عانت وطأة الاستعمار العسكري لم تتخلص من تبعات الاستعمار، هي اليوم مستعمَرة وخاضعة لإرادة الغرب ومخططاته الاستثمارية بطرق جديدة. في الواقع استقلال الدول الأفريقية استقلال صوري يحمل في طياته أشكال الانقياد، هذا ما عبّر عنه بـ"الكولونيالية

---

[١] جورج طرابيشي، **الأعمال النقدية الكاملة: شرق وغرب، رجولة وأنوثة**، ج١، ص٢٨.

[٢] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٩١.

[٣] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٧٩.

[٤] **المصدر نفسه**، ص٩٤.

[٥] **المصدر نفسه**، ص٩٥.

الجديدة": «إشارة إلى كل شكل من أشكال السيطرة التي تمارس على المستعمرات السابقة. وقال نكروما[١] بأن الكولونيالة الجديدة كانت أكثر دهاء وأبرع تخفيا وأصعب في الكشف عنها وتحديد معالمها ومقاومتها من الكولونيالية الصريحة الأقدم»[٢]. ثم أن الشرق قد جُبل على حُب الغرب بعد أن تقزّمت شخصيته أمامه واستشعر عقدة النقص والحقارة، وبات يتطلع إلى الغرب ويراه النعيم، وهو عالم بضياع هويته وخيراته لكن لايريد أن يستيقظ من سباته على واقع الحال، ولا يريد أن يسأل عن هويته!

٥. **الانسحاب من الواقع: حافة السقوط**

انسحب البطل من الواقع وولج عالم الخيال، فخبر قدوم الفرنسية حفّز قوة تخيّله ودفعه الانتظار إلى الاستسلام الكامل له، وكأن الخبر قشة يتعلق بها الغريق.كيف لايعمل خياله وقد «كانت أعظم أعماله على الإطلاق، تلك الصيحة التي تنادي بحرية الخيال لدى الناس، والتي أطلقها من حي غائب ذات مساء، لتصل فيما بعد إلى كل أقاليم البلاد، ويطلق عليها الباحثون في السياسة والتاريخ اسم صيحة جرجار»[٣]، حتى ليتبادر إلى الذهن أن الخيال من أعظم المواهب التي تلقى استحسانا فريدا في هذه البلاد طالما لايملكون شيئا من واقعهم. كما أنهم يؤمنون بالخرافات وقراءة الكف والشعوذة، فعلاوة على"حليمة المرضعة"، نجد شخصية "سومية" التي «جاءت لزيارة شيخ العواني، لتتدرب عنده لمدة ثلاثة شهور بناء على منحة منه. إنها طالبة في كلية الدجل والشعوذة في بلدها {ساحل العاج} وعلى وشك التخرج»[٤]. فللشعوذة والدجل كلية يقصدها الهواة!

بعد أن طال الانتظار قرر بخياله عقد قرانه عليها: «كنت منتشياً بشدة، يدق قلبي بعنف، وأنا أرتب بيتي للحدث الكبير، عقد قراني على الفرنسية حتى لو كانت صورة، حتى لو كانت خيالاً. كنت ممتلئاً بالعشق حتى القاع، ولم تعد لي طاقة لانتظار أولئك الأفارقة غريبي الأطوار إلى أن يفلتوا المرأة التي انتظرتها زماناً، فأنا الآن أمتلكها وأمضي بها لمستقبل جديد»[٥]. وحتى الكتابة على قالب الحلوى ترمز للعلاقة الدائمة بين الشرق والغرب: «كتبت عليه بخط متعرج لكن واضح "علي وكاتيا إلى الأبد"»[٦].

---

[١] كوامي نكروما الرئيس الأول لغانا المستقلة وأبرز داعية للوحدة الإفريقية .

[٢] بيل أشكروفت وآخرون، **دراسات مابعد الكولونيالية**، ص٢٥٤.

[٣] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص١٠.

[٤] **المصدر نفسه**، ص٧٨.

[٥] أمير تاج السر، **العطر الفرنسي**، ص٩٧.

[٦] **المصدر نفسه**، ص٩٩.

ويتخلل وصف البطل لحياته الزوجية المتخيّلة، إشارات ترمز إلى الاستثمار الانجليزي في السودان فترة الاستعمار وقد تحوّل إلى معالم: «عثرنا على سيارة أجرة بسهولة ولعلّه حظ كاتيا العسل، الذي كنت موقناً بأنه أكبر حظ في الكرة الأرضية.كنت أصف لها معالم الطريق والعربة تمشي. هذا خزان المياه الذي نشرب منه منذ استقلال البلاد. هذا نادي الخيول الذي أسّسه الإنجليز حين استعمرونا، وكان عامراً بالخيول والخيالة، والآن تحوّل إلى مصلحة الضرائب»[١]. المعالم المتبقية من الاستعمار لاتزال شامخة تسترجع سيناريو القهر الاستعماري إلى الذهن، لكن الشرقي يشاهد المعالم دون أن يستشعر الضغينة تجاه المستعمِر. ولاتغيب عملية التماهي بين المرأة والغرب فامتلاك "كاتيا" أكبر حظ في الكرة الأرضية هو امتلاك الغرب اكبر حظ من ثروات شعوب الكرة الأرضية. كاتيا/الغرب غارقة في بحر السعادة بعد أن انصهرت في دماء علي/الشرق تستنزف طاقاته تماما كما فعل المستعمِر: «تخبرهم {أهلها} أنها تركت دراستها العالمية التي أتت من أجلها تذهب إلى الجحيم، وإنها غارقة في السعادة والسرور، لارتباطها العميق بهم، بعد أن انصهرت في دمائهم بزواجها بواحد من أهل الحي»[٢]. وهو سعيد يقدّم لها ثروته: «وكنت قد أقسمت ألا أمسّ نقود كاتيا أبداً. ومنعتها هي أيضا أن تمس تلك النقود»[٣].

وكما أن للزواج ثمرة، كانت لزواجهما الوهمي ثمرة، فقد حملت "كاتيا" من زواج افتراضي في وعي البطل، ما يشير إلى عملية التواصل الحضاري بين الشرق والغرب والنتيجة الحاصلة منه. وعند حمل "كاتيا" كان بطنها ضامرا و«كانت فتنتها قد زادت بشكل لا يمكن تصوره. وأجمل مئة مرة من ذلك اليوم الذي عرفتها فيه، والذي شهد عقد قراننا»[٤]. ازدادت فتنتها بعد أن تغذّت من روح الشرق وامتصت ثرواته دون أن يظهر عليها آثار الجرم؛ هي تزداد جمالا وفتنة وهو يزداد ضعفا وشحوبا.

٦. جرجار/الشرق:فصام الهوية

في نهاية المطاف تأزّمت هوية البطل ظاهرة عليه أعراض الفصام. فبعد ممارسة خيالية لزواج متوهَّم، تسيطر الغيرة عليه؛ غيرة واهية ممن يحاول الاقتراب من زوجته. إذ لا يمكن لرجولته الشرقية أن تطيق فكرة مشاركة الآخرين إياه في محبوبته. وكل سكان الحي شاركوا بجريمة الرغبة فيها في مخيلة البطل، ولابد من

[١] **المصدر نفسه**، ص١٢٣.

[٢] **المصدر نفسه**، ص١٣٠.

[٣] **المصدر نفسه**، ص١٣١.

[٤] **المصدر نفسه**، ص١٣٤.

الانتقام منهم. هكذا تزلزلت العلاقة بين الزوجين وخرج في الحي بسكين مسنونة يقطر منها الشر والدم، قد تمثّل العنف بين الشعوب مصدره الغرب، ومصداقه واقع معظم البلدان الشرقية. وهو مآل هوى الغرب والتشبث فيه دون دراية وكفاءة لازمة.

ولا عجب أن يغرس سكينه في أحشاء "كاتيا" وهي تحمل نطفة لقاء الشرق والغرب متراوحة بين مرحلتي التكوين والإجهاض. فقد «يؤدي فقدان الهوية أي الاغتراب إلى ردي فعل متضادّين مثل العزلة والانطواء أو الانتشار والعنف»[١]. وقد ظهرت الأولى أي العزلة على البطل عند انعزاله عن الناس (بخياله) بدافع الغيرة، وظهرت الثانية عند لجوئه إلى العنف وحمله سكينا يهجم بها على أهالي الحي.

يمثّل المشهد الأخير قمة الفصام الذي يصيب الهوية جراء اغترابها الذاتي؛ إذ ينتهي الأمر بالبطل في مشفى المجانين والحي يستعدّ لاستقبال الفرنسية «فتاة أروبية شقراء، ترتدي فستاناً أزرق، ولم أستطع تأملها جيداً، لأن عينيَّ أظلمتا، وسقط رأسي على كتف الأمني موسى خاطر»[٢]. يقع رأسه على كتف الأمني حاملا معه دلالة إحكام الحكومات المحلّية قبضتها على الشعوب. مشهد تراجيدي مؤثر يجسد مأساة الشرق في سعيه الحثيث للاستحواذ على الغرب دون أن ينال منه أكثر مما نال "جرجار" من طيف "كاتيا".

هكذا انتهت أحداث الرواية في سرد مشوّق لعدم اللقاء بين شرق غارق بالأحلام والخرافات والجهل، وبين غرب يحمل وعيا وخططا تؤهّله لاستنزاف ثروات الشعوب دون عنف. يكفيه تخديرها بنواياه الأنسانية –كمهمة "كاتيا"– ليحظى بسباق الشعوب المضني لكسب رضاه.

بأسلوب ذكي صوّر تاج السر فصام أهالي "حي غائب" معتمدا على السخرية السوداء (تراجيكوميديا) لعرض طبيعة العلاقات الحضارية الجديدة بين الشرق والغرب وتطور الأساليب الخفية للاستعمار بحيث تشمل الناس جميعا وإن كانوا في أقصى المناطق.

النتيجة:

نستنتج مما سبق عدة نقاط أهمها:

١. وظّف أمير تاج السر ثنائية رجولة/أنوثة للدلالة على علاقة الشرق بالغرب، لكن توظيفه لهذه الثيمة المطروقة جاء مختلفا من جهتين. أولا اتخذ أسلوب عرض جديد باتخاذه الرحلة العكسية، حيث إن

[١] حسن حنفي، **الهوية**، ص٢٥.

[٢] المصدر نفسه، ص١٤١.

المرأة الغربية هي التي تأتي إلى الشرق، بشكل حضورٍ في وعي بطل الرواية لا على أرض الواقع، ما يرمز إلى التغيير الطارئ على طبيعة العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في الوقت الراهن، فالعالم اليوم هو عبارة عن "قرية كونية" تتلاشى فيها الحدود والتخوم الجغرافية. وهو سرد حداثي مختلف عما جاء في الروايات السابقة التي عُنيت بفئة المثقفين لا العامة. ثانيا تطرّق مباشرة إلى تأثير هذه العلاقة على البعد الهوياتي للشخصيات.

٢. الأوضاع المعيشية المزرية والكبت الاجتماعي، هيّأت الأنا/ السودانية/الشرقية للاغتراب الذاتي والبحث عن هوية بديلة في الآخر الغربي. ظهر هذا من خلال شخصية البطل المهزوزة واحتقاره كل ما له صلة بواقعه وبيئته السودانية ولجوءه إلى عالم الخيال فرارا من رداءة الواقع.

٣. جميع شخصيات "حي غائب" تأثرت نسبيا بخبر قدوم الفرنسية وتغيرت ملامح حياتها. انتفاضة أهل الحي تأهبا لقدوم الفرنسية واحتفاء حكام أفريقيا بها، يعكس فوضى تعيشها معظم البلاد الشرقية الغارقة بالجهل والخرافات على الصعيد الهوياتي. فهي مستقلة صوريا لكنها لاتزال مستعمَرة عمليا. تسيطر عليها أعراض حالة مرضية تشبه أعراض مَرضى الفصام.

٤. أعراض الفصام الهوياتي ظهرت شديدة على بطل الرواية "علي جرجار"، حيث ابتعد تدريجيا عن الواقع وعاش في أوهامه وخياله حُلم امتلاك "كاتيا"، وانتهى به الأمر في مشفي الأمراض العقلية بعد أن أصيب بالجنون وسار في الحي حاملا سكينا. وهي صورة رمزية تدلّ على حُلم الشرق في امتلاك الغرب. عجزُ البطل عن الاستحواذ على محبوبته صورة لعجز الشرق المخدَّر عن الاستحواذ على الغرب.

قائمة المصادر والمراجع

أ. الكتب العربية:

١. أشكروفت، بيل، وآخرون، **دراسات ما بعد الكولونيالية**، ترجمة أحمد الروبي وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة: المركز القومي للترجمة ٢٠١٠م.

٢. إبراهيم، عبدالله، **التجربة الاستعمارية وكتابة المنفى: ضمن كتاب الكتابة والمنفى**، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١م.

٣. بابا، هومي، **موقع الثقافة**، ترجمة ثائر ديب، ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.

٤. بعلي، حفناوي، **مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن**، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٧م.

٥. تاج السر، أمير، **العطر الفرنسي**، الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم ٢٠٠٩م.

٦. التلاوي، محمد نجيب، **وجهة نظر في روايات الأصوات العربية دراسة**، مصر: اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠م.

٧. تودوروف، تزفيتان، **فتح أمريكا:مسألة الآخر**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٢م.

٨. جاسم الموسوي، محسن، **النظرية والنقد الثقافي:الكتابة العربية في عالم متغيّر واقعها سياقاتها وبناها الشعورية**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.

٩. الحكيم، توفيق، **رواية عصفور من الشرق**، القاهرة: دار مصر للطباعة ١٩٣٨م.

١٠. حمود، ماجدة، **إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية**، كويت: عالم المعرفة ٢٠١٣م.

١١. حنفي، حسن، **الهوية**، الطبعة الأولى، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٢م.

١٢. الرويلي، ميجان وسعد البازعي، **دليل الناقد الأدبي**، الطبعة الثالثة، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م.

١٣. زهران، حامد عبدالسلام، **الصحة النفسية والعلاج النفسي**، الطبعة الرابعة، القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٥م.

١٤. الزهراني، معجب، **صورة الغرب في كتابة المرأة العربية ضمن كتاب أفق التحولات في الرواية العربية**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩م.

١٥. سعيد، إدوارد، **تأملات في المنفي**، ترجمة ثائر ديب، بيروت: دار الآداب ٢٠٠٤م.

١٦. طرابيشي، جورج، **الأعمال النقدية الكاملة:شرق وغرب–رجولة وأنوثة**، الطبعة الأولى، المجلد الأول، دبي: دار مدارك ٢٠١٣م.

١٧. فانون، فرانز، **بشرة سوداء أقنعة بيضاء**، ترجمة خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفارابي ٢٠٠٤م.

١٨. لومبا، آنيا، **الكولونيالية ومابعدها**، ترجمة باسل المسالمة، ط١، دمشق: دار التكوين ٢٠١٣م.

١٩. المناصرة، عز الدين، **مقدمة في نظرية المقارنة**، ط١، عمان: دار الكرمل للنشر ١٩٨٨م.

٢٠. نادر،كاظم، **الهوية والسرد**، الطبعة الثانية، دار الفراشة للنشر والتوزيع: الكويت ٢٠١٦م.

٢١. نجيب محفوظ، زكي، **في مفترق الطرق**، الطبعة الثانية، القاهرة: دار الشروق ١٩٩٣م.

ب. الكتب الفارسية:

٢٢. فيرحي، داود وديگران، **مبانى نظرى هويت وبحران هويت**، چاپ اول، تهران: پژوهشكده علوم انسانى واجتماعى جهاد دانشگاهى ١٣٨٣هـ.

ج. الرسائل:

٢٣. بن على، الحاج، **تمظهرات الآخر في الرواية العربية المغاربية**، رسالة ماجستير، جامعة وهران:كلية الآداب واللغات والفنون ٢٠٠٩م.

الدوريات:

٢٤. آذرشب، محمد علي وفاطمة أعرجي، **تمثيل هويّة التابع في الرواية العربية الجديدة رواية "شيكاجو" أنموذجا**، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الثامنة، العدد السادس والعشرون، خريف وشتاء ١٣٩٦هـ.

٢٥. دغوم، خيرية، **أزمة الهوية محمة الوطن في مسرحية ربطة العنق الدامية لنصر الدين بن غنيسة**، ندوة المخبر الهوية في الأدب الجزائري ٢٠١٤م.

٢٦. شقروش، شادية، **سيميائية العنوان في "مقام البوح" لعبدالله العيش**، محاضرات الملتقي الوطني الأول السمياء والنص الأدبي، العدد السادس والسابع، منشورات جامعة بسكرة ٢٠٠٠م.

٢٧. مباركي، جمال، **المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة نماذج مختارة**، مجلة قراءات، العدد الخامس، جامعة بسكرة الجزائر ٢٠١٣م.

د. المواقع الإكترونية:

٢٨. حمداوي، جميل، **رؤى الأنا والآخر في الرواية العربية**، (٢٠١٨/٥/٩)، www.almothaqaf.com .

٢٩. ربيع، ربيع ، **العلاقة بين الشرق والغرب في"المعجزة"**، (٢١٠٨/٥/٩)، http://inkitab.me.

٣٠. عبد المنعم إبراهيم، علاء، **تمثلات الغرب في الرواية العربية،ملحق الخليج الثقافي**، ٢٠١٢، (٢٠١٨/٥/٩)، http:// alkhaleej.ae .

گسیختگی هویت؛ زنانگی پیروز و مردانگی مغلوب:
مطالعه‌ی پسا استعماری رمان «عطر فرانسوی» امیر تاج السر

فرامرز میرزایی*، بشری جزائری راد**، خلیل پروینی***، هادی نظری منظم****

چکیده

تهاجم فکری و فرهنگی یا استعمار نو، امکان مسخ هویت ملت‌ها را بدون نیاز به جنگ فراهم می-کند. گاهی بازتاب آن به شکل عوارض بیماری "شیزوفرنی" بر استعمار زدگان ظاهر می شود وآنها را روان پریش، ازخود بیگانه، و به دور از واقعیت می‌سازد. از آنجا که مسائلی مانند: چالش من/دیگری و نمود بارزش دوگانگی شرق/غرب از مهم‌ترین مفاهیم نقد پسا استعماری به شمار می‌رود، ادبیات پسااستعماری به ویژه رمان به شکل گسترده‌ای به بحث هویت پرداخته است و نویسندگان عرب در آثارشان مکررا به دیدار شرق وغرب و بازتاب آن بر هویت پسا استعماری اشاره نموده‌اند. در این میان رمان "عطر فرانسوی" اثر امیر تاج السر نویسنده‌ی سودانی، با به کارگیری چالش شرق/غرب و در چهارچوب روابط زن و مرد، بحران هویت شخصیت‌های داستانی را مطرح کرده است؛ اما برخلاف دیگر رمان‌ها اینچنینی، این بار زن غربی، بلکه سایه خیالش، به شرق(سودان) می‌آید و مرد شرقی را در سرزمینش بحران زده می‌کند. رمان با بیان پیامدهای منفی این دیدار خیالی از شیوه‌های نوین استعمار غربی در شرق بدون سازوبرگ نظامی هشدار می‌دهد. این پژوهش با رویکرد تحلیلی- توصیفی و با بهره‌گیری از مولفه‌های نقد پسااستعماری می‌کوشد شیوه به کارگیری دوگانگی مردانگی/زنانگی برای بیان تأثیرات غرب بر هویت ملت‌ها در دوره پسا استعمار را، زیبایی‌شناسی کند. نتایج نشان می‌دهد عنوان رمان بیانگر سیاست نرمی است که حتی احساس کینه‌ی استعمارزده از استعمارگر را از بین برده، و اسکیزوفرنی شخصیتی قهرمان رمان وناتوانیش در به چنگ آوردن معشوقه غربیش نماد عجز شرق در رسیدن به دست آوردهای غربی است.

کلید واژه‌ها: هویت، مردانگی/زنانگی، پسا استعماری، امیر تاج السر، عطر فرانسوی.

---

* – استاد گروه زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه تربیت مدرس، تهران.

** –دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه تربیت مدرس، تهران.(نویسنده مسؤول) b.jazayri@modares.ac.ir

*** – استاد گروه زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه تربیت مدرس، تهران.

**** - استادیار گروه زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه تربیت مدرس، تهران.

تاریخ دریافت: ۱۳۹۶/۰۹/۱۱هش= ۲۰۱۷/۱۲/۰۲م تاریخ پذیرش: ۱۳۹۷/۰۷/۰۶ هش= ۲۰۱۸/۰۹/۲۸م

Schizophrenic Identity; Victorious Femininity and Defeated Masculinity: A Post-colonial study of The French Perfume by Amir Taj Alsir

Faramarz Mirzaee, Professor, Tarbiat Modares University.

Boshra Jazaeri-Rad, Arabic Language and Literature Ph.D. Candidate, Tarbiat Modares University. (Corresponding Author).

Khalil Parvini, Professor, Tarbiat Modares University.

Hadi Nazari Monazam, Associate Professor, Tarbiat Modares University.

Abstract

Intellectual and cultural invasion, a new type of colonialism, makes it possible to alienate nations without war. The reflection of such an invasion on identity appears sometimes as schizophrenic symptoms, which turn the colonized into psychos alienated and disconnected from reality. Since issues such as I-Other challenge, and its clear manifestation, namely duality of East/West, are among the most important concepts of post-colonial literary criticism, post-colonial literature, especially the novel, has widely discussed the problem of identity. Arab writers have repeatedly referred to the encounter of the East and the West, and its reflection on post-colonial identity. Using the East-West encounter in the form of men and women relationship, the Sudanese novelist, Amir Taj Alsir, presents the identity crisis of its characters in *The French Perfume*. However, unlike other novels, this time a western woman comes to the East (Sudan) and causes identity crisis for a man inside his homeland. Indicating the negative implications of this imaginary visit, the novel warns of new methods of western colonization without military apparatus. Using an analytical-descriptive approach and the post-colonial critical tools, this research seeks to carry out an aesthetic analysis of the application of the masculinity/femininity duality in the expression of the western impacts on the identity of nations in the post-colonial era. The results indicate that the title of the novel represents a soft policy which manages to eliminate even the bitterness and negative attitudes in the colonized nations towards colonialist. The analysis also shows that schizophrenia and dual personality of the hero and his disability in winning the love of his western would-be mistress represent the East's disability to achieve Western achievements.

Keywords: Identity**,** Masculinity/Femininity, Post-Colonialism, Amir Taj Alsir, *the French Perfume.*